الشخصية المحورية فى قنديل أم هاشم

-١-

تتركز فى إسماعيل ، دون غيره من شخصيات قنديل أم هاشم ، كل خصائص الشخصية المحورية ؛ فهو المستأثر بالقسط الأكبر من اهتمام يحيى حقى ؛ إذ سلط عليه أكبر مساحة من الضوء ظفرت به شخصية من شخصيات الرواية ، وأطال صحبته ، وظل يتتبع حياته ، من صباه الباكر حتى وفاته . هذا أولا .

وثانيا : أن منزلة إسماعيل بالقياس إلى غيره من الشخوص ، تؤكد كونه شخصية محورية . إنه أشبه بالمصباح الذى ينير سبيلنا إلى معرفة رفاقه من شخوص الرواية ؛ فنحن لا نعرف دردير ى أو نعمة أو فاطمة أو الشيخ رجب أو مارى ، إلا لأن حياة إسماعيل اتصلت بحياتهم على نحو أو آخر .

وثالثا : أن يحيى حقى عنى بإبراز أهم معالم شخصية إسماعيل ، وركز بصفة خاصة على ملامح البعدين الاجتماعى والنفسى تركيزا لم تظفر به أية شخصية أخرى فى قنديل أم هاشم. إن ما يصلنا من ملامح شخصية الشيخ دردير ى يقل كثيرا عما يصلنا من ملامح إسماعيل ، حتى أنه يكاد يقتصر على خادم المقام الزينبى ، يتكسب بزيت القنديل ، قذر الجلباب ، أغبر العمامة ، مزواجا ، يسعل سعالاً لا ينقطع من تدخين الحشيش . إننا لا نعرف شيئاً عن أسرته ، ولا عن علاقاته بأهل الحى ، ولا عن حظه من التعليم . أما بالنسبة لملامح إسماعيل فإن الأمر جد يختلف ؛ فهو شخصية مرسومة بعناية ، ويحيى حقى يزودنا منذ

البداية بإشارات مهمة عن أسرة إسماعيل ، عن حفظه القرآن ، وعن خبرته بالحى الزينبى ، عن تفوقه ، عن ثراء أبيه ، عن عفافه ثم شقاوته بعد أن بلغ مرحلة المراهقة ، عن حصوله على" البكالوريا "، عن حيرته بين الإقبال على الناس والإعراض عنهم، إلى غير ذلك من الإشارات التى من مجموعها تتجسد شخصية إسماعيل فى مخيلة المتلقى ، وتدب فيها الحياة على صفحات الرواية .

وإذا كانت الشخصية المحورية تظفر بهذا القدر الكبير من الاهتمام ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه ، فى هذا الصدد ، هو : ما مغزى بناء شخصية إسماعيل على النحو الذى نراه فى الرواية ؟

وبداية نجد يحيى حقى يعول ـ أول ما يعول ـ فى بناء إسماعيل وتجلية معالم شخصيته ـ على المكان " حى السيدة زينب ". إن أسرة إسماعيل تعلقت بالمقام الزينبى ، أو على حد تعبير السارد : " وهكذا عاشت الأسرة فى رحاب الست وفى حماها : أعياد الست أعيادنا، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا "[١] .

ولا يكتفى يحيى حقى بإشارته الدالة إلى نشأة إسماعيل فى الحى الزينبى ، بل يواصل تزويدنا بإشارات أخرى ليست أقل أهمية من سابقتها ، فى بناء شخصية إسماعيل ، وإبراز معالمها وأبعادها أمام المتلقى ؛ حتى تحقق الإقناع الروائى ، وتبدو أفعالها موصولة ببواعثها .

---

(١) يحيى حقى ، قنديل أم هاشم ، ص٦ ، ط دار المعارف " سلسلة اقرأ " ١٩٨٤ .

ومن مجموع الإشارات المبثوثة فى تضاعف الرواية ، يعـــرف المتلقى الإشارات أن إسماعيل أصغر إخوته ، وأنه ينتمى إلى أسرة على قدر من الثراء ، وأنه اضطر إلى حفظ القرآن ترضية لأبيه ، لا بدافع شخصى منه ! وأنه كان يخشى لو أصر أبوه على إلحاقه بالأزهر ؛ لأنه يرى صبية الميدان تلاحق المعممين من الفتية بهتافات بذيئة . وهذا إنما يدل على أنه يريد أن يكون شخصية تحظى باحترام الآخرين . كما نعلم أنه تلقى دروسه فى المدارس الأميرية . ويفسر السارد جانبا من تميز إسماعيل فى تقريره التالى :

" ولكن الشيخ رجب سلمه بقلـــب مفعم بالآمال إلى المـــدارس الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى ، فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير صبر ... وهو فوق ذلك أكثر رجولة ، وأقوم لساناً ، وأفصح نطقاً من زملائه " المدلعين " أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان . فما لبث أن بَدَّ الأقران ، وتلألأت على سيمائه نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته "[٢] . وواضح أن التربية الدينية والأصل القروى وراء تميز إسماعيل حتى تلك المرحلة من حياته .

كذلك نعرف من إشارات السارد أن لإسماعيل فى نفوس أبناء الحى مكانة رفيعة ، بدليل أن أحدا لم يكن يناديه إلا بـــ " سى إسماعيل

---

(٢) قنديل أم هاشم ، ص ٧ .

" أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال " [٣] .

ويكشف أحد التقارير السردية عن منزلته فى بيت أبيه ، يقول السارد :

" له أطيب ما فى الطعام والفاكهة . إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب، وهو يتلو أوراده ، إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم على أطراف أصابعها ، وحتى فاطمة النبوية ـ بنت عمه اليتيمة أباً وأماً ـ تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه فى جلستها صامتة كأنها أمَة وهو سيدها . تعودت أن تسهر معه كأن الدرس درسها، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتى الأجفان ، وأصابعها تعمل فى حركة متصلة لا تنقطع فى بعض أشغال التريكو ... إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد . كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته " [٤] .

وتأتى حركة إسماعيل فى المكان لتعزز عن عمق انتمائه للحى الذى نشأ وتربى عبى أرضه ؛ فحياته لا تخرج عن الحى والميدان ، وإذا أراد أن يتنزه فلا يبعد عن حيه وميدانه وإنما يقتصر على الخروج إلى حى المنيل القريب من حى السيدة ، قد يسير بجانب النهر الذى وهب مصر الحياة ، وقد يقف على الكوبرى مناجيا النهر . إنه يذوب فى المكان بمن فيه ، ويعرف أدق جزيئاته ، يظهر هذا من قول السارد :

---

(٣) السابق ، ص ٧ .
(٤) قنديل أم هاشم ، ص ٧ ، ٨ .

" هو خبير بكل ركن وشبر وحجر ، لا يفاجئه نداء بائع ، ولا ينبهم عليه مكانه ، تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط ... لا يتطلع ولا يمل ، لا يعرف الرضا ولا الغضب ، إنه ليس منفصلاً عن الجمع حتى تتبينه عينه ... "[٥].

- ٢ -

ويكشف يحيى حقى عن التحولات التى تطرأ على شخصية بطله الذى ودع مرحلة الصبا ، واستقبل مرحلة المراهقة . إن إسماعيل الذى كان فى صباه لا يعرف الرضا ولا الغضب أصبح الآن فى طور المراهقة ، ومن ثم " فهو ممزق بين قوى دافعة وأخرى جاذبة "[٦]. وبعد أن كان ملتصقاً بالميدان بما فيه ومن فيه ، غير منفصل عن المجموع ، أصبح يكاد ينشطر نصفين من فرط تذبذبه ؛ فهو " يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته "[٧]. وبعد أن كان لا يتطلع إلى امرأة ، أصبح يندس وسط النساء المترددات على المقام ، وهذا ملحظ مهم يلفتنا إليه السارد بقوله :

كان يَرَاهُنَّ من قبل فلا يفطن إليهن ، أما الآن فهو يتتبعهن وتعلق نظرته بهن وتتريث .. "[٨] . ما ظهر فى حياة إسماعيل من تحولات ، يؤكد بجلاء أنه شخصية من دم ولحم ، وأنه يحمل كل سمات الشخصية

---

(٥) السابق ، ص ١٣ : ١٤ .
(٦) قنديل أم هاشم ، ص ١٤ .
(٧) السابق ، ص ١٤ .
(٨) نفسه ، ص ١٥ .

المستديرة ، فى داخله رغبة فى توديع حياة العفاف ، وفى الإقبال على المرأة والتعلق بها. ومن المؤكد أن يحيى حقى أراد أن يمهد القراء كى يروا تحولات أخرى أكثر حَسْماً فى حياة بطله ، كى يروا إسماعيل آخر يعيش فى إنجلترا، ويحب مارى ، ثم يتطهر من حبها ، وينبهر بما تقدمه له حضارة الغرب من ألوان المتع التى قد تصل إلى حد الانحراف.

- ٣ -

وإذن فقد سلح يحيى حقى إسماعيل بزاد وفير من الخبرة والوعى والصبر ، هذا إلى رصيد روحى ، و جذور ضاربة فى أعماق الريف ، وميل طبيعى إلى المرأة ، ثم دفع به إلى إنجلترا ليتعلم طب أوروبا ، ويعود به إلى وطنه كى يزيل ما على العيون من غشاوة ، ويرد الأبصار إلى من لا يرون إلا لماماً . وأوكل الكاتب إلى الشيخ رجب مهمة تسليح ابنه بما يحفظه من الفتنة بالغرب : " وصيتى إليك أن تعيش فى بلاد بره كما عشت هنا حريصاً على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرة فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك . ونحن يا بنى نريدك أن ترجع إلينا مفلحاً لتبيض وجوهنا أمام الناس . وأنا رجل قد أوشكت على الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك . وإياك أن تغويك نساء أوروبا فهن لسن لك ، وأنت لست لهن " [٩] .

---

(٩) قنديل أم هاشم ، ص ٢٠ : ٢١ .

والسؤال الآن : إلى أى مدى سوف يصمد إسماعيل عند المواجهة مع الآخر ؟ هل تعصمه جذوره القروية وتراثه الروحى من السقوط أمام المرأة الإنجليزية . ؟ الواقع أنه لبث فى إنجلترا سبع سنين اكتسب فيها الكثير ، وخسر فيها الكثير ، إن البطل الذى بذ أقرانه فى المدرسة الأميرية ، بذ أقرانه ـ أيضا ـ فى جامعات إنجلترا وأجبرها على أن تشهد له بالتفوق النادر ، والبراعة الفذة ، وكان أستاذه يمزح معه بقوله : " أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى بلد العميان " (١٠) ـ هكذا تبدو مصر فى عيون أستاذ إسماعيل ـ والسنوات التى أمضاها فى إنجلترا فتحت بصره على أهمية الإحساس بالجمال ، بوصفه غذاء روحياً ، وعلمته كيف يتمتع بغروب الشمس ـ كأنه لم يكن فى وطنه غروب ـ ويلتذ بلسعة برد الشمال (١١) .

كان إسماعيل قبيل سفره يشغف بالنساء حباً ؛ يشتهى فتاته السمراء نعيمة ، ويشتهى النساء جميعاً ، ونساء أوروبا على وجه الخصوص . وإذا كان إسماعيل انتصر فى مجال العلم ، وتعلم دروسا فى حب الجمال والاستمتاع بمباهج الطبيعة ، فقد انهزم أمام مارى التى أنسته ماضيه ، وفصلته عن جذوره . وفداحة الخطب تكمن فى كون المهزوم مثقفاً عربياً لم يستطع أن يحتمى برصيده الروحى من غواية مارى ، وخطرها على شخصيته وحضارته .

---

(١٠) قنديل أم هاشم ، ص ٢٥ .
(١١) السابق ، ص ٢٨ : ٢٩ .

هل كان العيب فى تربية إسماعيل ؟ ولماذا ننسى أنفسنا وقيمنا ومحذورات ديننا أمام نساء أوربا ؟ لعل ما يخفف من إحساسنا بهزيمة إسماعيل ، أن المرأة فتنة أيا كان دينها أو جنسيتها ، وأن الامتحان الذى تعرض له إسماعيل خلال علاقته مع مارى ، يذكرنا - من بعض الوجوه- بالامتحان الذى تعرض له يوسف عليه السلام . وإذا كان يوسف، عليه السلام ، همَّ بامرأة العزيز لولا أن رأى برهان ربه ، فما لنا ننكر على إسماعيل أن يفتن بفتاة جميلة وهو لم ير برهـــان ربـــه ؟

أوليس هو الذى كانت نظراته تلاحق فتيات الحى الزينبى ؟ .

نعم إن مارى " هى التى فضت براءته العذراء " [١٢]، وهى التى أنسته - إلى حين - ماضيه وتراثه الروحى وأفقدته عفافه ، وأسكرته بأنوثتها ، أو على حد تعبير السارد :

" كان عفاً فغوى ، صاحياً فسكر ، راقص الفتيات وفسق " [١٣] ولكن مارى هى التى جعلته يعيد اكتشاف نفسه ، ويتخلص من قيود كثيرة وعواطف غير رشيدة ، كانت توجه سلوكه . لقد لقنته دروساً كثيرة فى الحياة : أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق هذا درس . وفتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال ، فى الفن ، فى الموسيقى، فى الطبيعة ، بل فى الروح الإنسانية . وهذا درس ثان .

---

(١٢) قنديل أم هاشم ، ص ٢٩ .
(١٣) السابق ، ص ٢٨ .

والثالث : أنها علمته أن الحياة ليست استاتيكية ثابتة ، بل ديناميكية متحركة: " يا عزيزى إسماعيل . الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل مجادلة متجددة "[١٤]؛ ولذلك كان يقول لها : " تعالى نجلس " ، فتقول له : " قم نسر " .

الرابع : وإذا حدثها عن الزواج حدثته عن الحب ؛ لإيمانها بأن الحب يسبق الزواج .

خامس الدروس : أنه كان أشبه بمن يبحث عن مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هى فكانت تقول له : إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك فى نفسك . كان يخشى الحرية ، وكانت تخشى القيود .

السادس : أنه كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه ، وإذا لقى من تريحه المجاملة لا يجد بأساً فى مجاملته . أما هى فقد كانت عواطفها أكثر رشداً ، لا تعبأ بأحكام الناس عليها ، ولا تجامل بغير حق . لا تريد أن تكذب . إنها تكره الضعف ؛ لذا كانت بتارة فى إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والرذل ، والحزين ، والمنافق ، فلما تخلصت من هذه الأوشاب أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبته " [١٥] .

---

(١٤) نفسه ، ص ٣٠ .
(١٥) قنديل أم هاشم ، ص ٣٠ .

وآخر الدروس : أنه كان يطيل مجالسة الضعفاء من مرضاه ، ويجلس صامتاً ينصت لشكوى أولئك الذين خرب الزمن أعصابهم وعقولهم ، بل كان كريماً معهم حين يماشى منطقه منطقهم المريض ، وعلى أثر ذلك لقنته درساً مهماً : " أنت لست المسيح بن مريم . من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم .هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تُمَدُّ إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم . إن هذه العواطف الشرقية مرذولـــة مكروهة ؛لأنها غير عملية وغير منتجة "(١٦).

هذه هى أهم الدروس التى تعلمها إسماعيل ، وواضح أن أكثرها نافع ، وأقلها ضار . غير أن المشكلة ليست فى صحة أو خطأ تقديرنا هذه الدروس ، المشكلة فى مدى تقبل إسماعيل لها ، وقدرته على تمييز ما ينفعه مما يضره ويهدد سلامته الروحية . لقد اكتشف أن أفكار مارى قوضت كيانه ، وأن " روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها ، كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها إذ توصله بمن حوله . واستيقظ فى يوم فإذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير ، والنفس البشرية لا تجد قوتها ومن ثم سعادتها إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها ، أما الاندماج فضعف ونقمة . لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقاً وحيداً فى خلائه ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من القلق والحيرة ، بل بدت فى

---

(١٦) السابق ، ص ٣١ .

نظرته أحياناً لمحات من الخوف والذعر " [١٧] .

هنا تبلغ أزمة إسماعيل ذروتها ، ولاسيما أنه فى إنجلترا ، حيث لا أهل ولا خلان إلا مارى التى كانت سعادته وتعاسته ، وهنا ندرك أهمية الإشارات التى زودنا بها يحيى حقى ، فى مستهل الرواية ، عن صلة إسماعيل بالمجموع فى الحى الزينبى ، وعن التراث الروحى المترسب فى أعماقه . إن استعادة هذه الإشارات تساعدنا على الوعى بأبعاد المأزق الذى يعيشه مثقف مغترب كإسماعيل .

لقد خَرَّبَتْ مارى نفسه ، وشككته فى النشأة التى نشأها ، وفى القيم التى تعلمها ، وفى التراث الروحى الذى نهل منه . وليس أشق على الإنسان من أن يكتشف أن كل ما رُبِّىَ عليه مجرد قبض ريح ، وعندما يظن إسماعيل العربى، المسلم ، ابن حى السيدة زينب ، الذى كان يذوب فى الجموع ولا ينبهم عليه صوت بائع ، أن الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير ، وأن القوة والسعادة فى الأنانية والأثرة ، وأن التراحم ضعف وخذلان ، أقول : عندما تخور نفسه، ويضطرب عقله بمثل هذه الظنون تكون حضارة الغرب قد ألحقت بحضارة العرب هزيمة فكرية وروحية مروعة .

لقد عرَّض يحيى حقى إسماعيل لمواقف دقيقة وأزمات طاحنة ، وأدار صراعا غير متكافئ بين بطل دينى النشأة ، قروى الأصول ، وفتاة تحررت من كل ما يقيد البطل . مارى امرأة فيها جاذبية ، وفيها

(١٧) قنديل أم هاشم ، ص ٣١ : ٣٢ .

تحرر ، وفيها ـ بمقاييسنا الشرقية ـ إباحية ، إن لم يكن انحراف . أما إسماعيل فهو رجل فيه ـ بحكم الفطرة ـ حب النساء ، وفيه ـ بحكم المرحلة السنية التى اغترب فيها عن الوطن ـ بقية من طيش الشباب . وفى إسماعيل قيود تقيد فكره وإحساسه ؛ قيود يفرضها عليه دينه ، وتفرضها عليه أصـــوله القروية ، وتفرضها عليه وصايا أبيه . وفى أنوثة مارى وتحررها ما يغرى إسماعيل بالثورة على كل قيوده .

وإذن فنحن نُحَمِّلُ إسماعيل ما لا يطيق حين نجعله نداً لمارى بما فيها من غواية وفتنة ، ولو تبدلت المواقع وكانت مارى امرأة شرقية وإسماعيل رجلا غربيا ، لكان النصر من نصيب المرأة الشرقية . ولو أراد يحيى حقى أن يختبر سلامة إسماعيل الفكرية والدينية والنفسية ، فلِمَ لَمْ يجعل مارى رجلاً أوربيا، ولِمَ لمْ يقصر الصراع على مجال العلم مثلاً ؟ إن إسماعيل الذى زعزعت مارى ثقته فى ثوابت الحضارة العربية ، هو بعينه الذى بذ أقرانه فى ميدان العلم ، ومعنى هذا أن الهزيمة العاطفية ليست دليلا كافيا على هشاشة التكوين الروحى لأبناء الحضارة العربية ، ولا سيما أن مثل هذه الهزائم يمنى بها الرجل الشرقى فى علاقته بالمرأة الشرقية .

أيريد يحيى حقى أن يحذرنا من نساء أوروبا ، وأن يلفتنا إلى أن العلاقة بين الرجل الشرقى والمرأة الغربية تشكل خطراً على ثوابت حضارتنا العربية ؟ وهل اهتزت ثوابت الحضارة الشرقية فى نفس يحيى حقى حين تزوج من امرأة غربية !

وأياً كان الأمر فإن إسماعيل استطاع أن يجتاز أزمته العاطفية ، وإن لـم يكن اجتازها بتدبير وتخطيط وجلادة بقدر ما كان اجتيازها ضربة حظ . يقول يحيى حقى : " من حُسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوروبا ، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ، ثابتة واثقة " [١٨] .

لقد خرج إسماعيل من أزمته وهو يعرف كيف يهزم غواية "مارى" ، أو على الأقل يدرأ عن نفسه شر هذه الغواية . وإذا كان قبل أزمته يجلس بين يدى مارى جلسة المريد أمام القطب ، فإنه الآن يجلس بجوارها جلسة الزميل إلى زميله . إن عواطفه بلغت مبلغ الرشد ، بدليل أنه لم ييَأسَ ، ولم يتألم ، حين رآها تنأى عنه ، وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها [١٩]. لقد كان ضعف إسماعيل يضاعف قوة مارى ، فلما استرد عافيته جردها من أخطر أسلحتها ، وتعامل معها تعامل الأنداد . بل إن التحول الذى طرأ على مشاعره نحوها يعنى ببساطة أنه أفاق من غيبوبته العقلية ، وتحرر من الفتنة بصواحب العيون الزرق ، والشعور الصفر ، والخدود الحمر . ولابد أن يكون لرصيده الروحى والأخلاقى دخل فى هذه الإفاقة ، وفى هذه النفس الجديدة ، الثابتة ، الواثقة ، التى خلص بها . ولا بد أن تكون لوصايا أبيه أثرها فى تحرره من مارى ، وفى نجاته من الغرق فى بحار الرذيلة .

---

(١٨) قنديل أم هاشم ، ص ٣٢ .
(١٩) قنديل أم هاشم ، ص ٣٢ .

إن إشارة يحيى حقى إلى انصراف مارى نحو زميل من جنسها ولونها ، تكتظ بالعديد من الدلالات : لعله يشير إلى سذاجة إسماعيل حين شغف بمارى حباً دون أن يقيم وزناً للونها وجنسها وقيم حضارتها ، ولعله يشير إلى العجز عن التفاعل المثمر الخلاق بين إسماعيل ومارى، ولعله يشير إلى أن مارى تكره ضعف الرجال ؛ وتكره العواطف الشرقية غير المنتجة ؛ ولذلك انصرفت إلى ابن حضارتها لسهوله فهم أحدهما للآخر ، ولعجز إسماعيل عن مجاراتها فيما تدين به من قيم ، وعجزها عن فهمه أو تغييره إلى شخصية غربية القيم .

وإذ يترفق يحيى حقى بإسماعيل ، يبعث فى نفسه حب الوطن ، ويزوده بالقدرة على انتقاد الآخر انتقادا يصل إلى حد الرفض . وفى تساؤل مشوب بالاستنكار يؤكد إسماعيل أن شيئا فى أوربا لا يمكن إهداؤه إلى أبيه وأمه : " وماذا فى أوروبا كلها يصلح لأبى وأمى .؟ " هكذا بلغت درجة رفضه الآخر ، مع أن علم الآخر هو الذى سيزيل الغشاوة من على عيون أبناء الوطن .

إن أزمة الشخصية المحورية " إسماعيل " لم تنته بعودته إلى الوطن ، بل إن عودته بعلم الغرب وثقافة الغرب جعلته يواجه أزمة أشد عنفاً وضراوة من تلك التى عاشها فى إنجلترا .

- ٤ -

وتبدأ بوادر أزمته مع ذلك الامتعاض الذى أبداه حين نظر إلى محتويات الدار ، وحين ضاق بضيق الدار وظلمتها ، وكأنه لم يُرَبّ فيها. إنه يضيق بقطع الأثاث المتناثرة ، ويتساءل فيما يشبه الاحتجاج الصامت : أما يزال ضوءهم من مصباح البترول ؟ ولماذا هم على البلاط . وأين البساط .؟

وتأخذ أزمته فى التصاعد التدريجى ، فإذا هو يصيح فى " أم محمد " حين يسمعها تزغرد ابتهاجاً بعودته : " بس بلاش خوته ، يا ولية اعقلى " [٢٠] هكذا رأى فى زغرودتها جنوناً ، وهو الذى يعرف - قبل سفره - أن الزغاريد جزء أصيل من تراث قومه !.

وإذا هو على يقين من خيانة وعده أباه بالزواج من فاطمة النبوية. بل إنه فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد ، لم يملك نفسه عن التساؤل : كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف سيجد راحته فى هذه الدار ؟ [٢١] . إنه غريب فى داره وبين أهله ، مع أن الأهل لم يتغيروا ، ولا تغيرت الدار ، وإنما تغير إسماعيل فى إنجلترا فتغيرت رؤيته لمن حوله ، وما حوله .

---

(٢٠) قنديل أم هاشم ، ص ٣٨ .
(٢١) قنديل أم هاشم ، ص ٣٨ .

وتتفاقم أزمته حين يرى أمه تُقطّرُ زيت القنديل فى عينى فاطمة لتداويها من الرمد . لنقرأ الحوار التالى الذى يصور حدة الأزمة وعنف المواجهة بين ثقافة وعلم الغرب المهيمنين على تفكير الطبيب إسماعيل من ناحية ، وبين تراث وطنه الروحى الموجه لسلوك أمه من ناحية أخرى :

" قالت الأم :

ـ تعالى يا فاطمة قبل أن تنامى أقطر لك فى عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة فى عينيهـــا

سائلاً تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

ـ ما هذا يا أمى ؟

ـ هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه كل مساء . لقد جاءنا به صديقك الشيخ دردير ى . إنه يذكرك ويتشوق إليك . هل تـذكـــره ؟ أم

تراك نسيته ؟ .

قفزَ إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه ، وهو طبيب عيون ، يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى العيون .. فى

وطنه ؟ .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها وفحص عينيها ، فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدىء المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى . فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

ـ حرام عليك الأذية . حرام عليك ، أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمتم ولا تبين .

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير ، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة .

ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟ .

ونطقت أمه أخيراً تستعيذ بالله وتقول له :

ـ اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابنى . ربنا يكملك بعقلك . هذا غير " الدوا والأجزا " . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء :

ـ أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى هتجيب للبنت العمى . سترون كيف أداويها على يدى أنا وأحق لها الشفاء الذى لم تجده عند الست أم هاشم .

ـ يا ابنى ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز . جَرَّبُوه وربنا شفاهم عليه . احنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم ده سرها باتع .

ـ أنا لا أعرف أم هاشم ولا عفريت " [٢٢] .

هكذا عاد إسماعيل شخصاً آخر غير الذى نشأ فى حى السيدة زينب ، وصادق الشيخ دردير ى . وهنا لا بد أن نتذكر الإشارات التى كان يرسلها السارد فى مستهل الرواية عن ارتباط إسماعيل بالمكان ، وانصهاره فى المجموع ، وتعلقه بالست ، ونشأته فى حماها بعد الله عز وجل . إن تذكـر هذه الإشارات ووضعها بجوار قول إسماعيل " أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلن أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟ " وقوله : " هـى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنت العمى " ، وقوله " أنا لا أعرف أم هاشم ولا عفريت " يجعلنا ندرك عمق الزلزال الذى زعزع قيم الشرق الروحية فى نفس البطل ، نشعر بحدة التحولات التى طرأت عليه، والتى هزت صورته فى نظر أبويه ، وَصَوَّرَتْه لهما على أنه عاد مارداً أو شيطاناً لا ذمة له ولا عهد ولا دين . إن الدار التى ارتبطت بأم هاشم ، وترددت فى أرجائها آيات القرآن والأوراد ، تتصدع الآن بفعل كلمات خرجت من فم إسماعيل وكأنها معاول هادمة لكل أحلام الأسرة :" أنا لا أعرف أم هاشم ولا عفريت " . ليس المهم أن تصدق رغبة إسماعيل فى محاربة الخرافات والأوهام ، بل

---

(٢٢) قنديل أم هاشم ، ص ٣٩ : ٤٠ .

المهم أن يكون من حوله راغبين فى الشفاء ، وإلى هذا لم يفطن إسماعيل ، مما زاده شقاء وغربة .

وتزداد أزمته تعقداً عندما خرج إلى الميدان ، فإذا أجساد الناس لم تعرف الماء منذ سنين ، وإذا الصابون عندها والعنقاء سواء ، وإذا هو يناجى نفسه : " هنا جمود يقتل كل تقدم ، وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام النائم ، والشمس طالعة " (٢٣) .

ولا شك أنه يقصد أن الشمس طالعة من الغرب ، فى حين أنها ينبغى أن تطلع من الشرق ، لكن أبناء الشرق لبثوا فى جمود . إن المثقف العائد من الغرب ، يتمنى ألا يرى الشرق على هذا النحو من التخلف، ومن الهوان الذى يصبح معه الصابون والعنقاء سواء ! إنه قوى الإحساس بالفجوة الحضارية بين قوم كالإنجليز يعرفون للزمن قيمته ، وقوم ، كقومه ، لا قيمة للزمن فى حياتهم . ولهذا ودَّ لو أمسك بالناس وهز كل واحد منهم هزة عنيفة وهو يقول :" استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك . ما هذا الجدل فى غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة فى سفاسف ... " (٢٤).

هكذا عاوده الإحساس بأنه المسئول عن خطايا من حوله ، وأنـه ـ كمثقف ـ لا بد أن يهزم الجهل ، ويوقظ الغافلين ، ويصرفهم عن السفسطة غير المنتجة ، ويدفعهم إلى العمل الخلاق . وهو إذا كان قد هزم الجهل فى داره حين ألقى قارورة الزيت من النافذة ، فإن

---

(٢٣) قنديل أم هاشم ، ص ٤٤ .
(٢٤) السابق ، ص ٤٤ .

إحساسه بمسئوليته نحو المجموع ، قاده إلى هزيمة الجهل فى مهده ، إلى اجتثاث الداء من جذوره . إن فاطمة النبوية فى نظره رمز للوطن ، وإسماعيل لا يريد لوطنه أن يكون وطن العميان ، من هنا كان جريه إلى المسجد وتحطيمه القنديل بوصفه رمزاً للتخلف ومصدراً للداء .

هل أخطأ إسماعيل حين حطم القنديل ؟ ولم عوقب من المريدين ؟ الواقع أنه أصاب من جانب ، وأخطأ من جانب آخر . أصاب حين قرر أن يجتث الداء من منبعه ، وأخطأ حين لم يقم لغضب الناس وزنا ، ولم يعبأ برضائهم عنه أو سخطهم عليه ، وربما كان هذا الخطأ من أثر مقولات مارى ، التى لم تكن تعبأ بآراء الناس فيها . إن القنديل يمثل جزءاً من التراث الروحى لأبناء الحى ، لكن الحضارة الغربية المادية محت هذه القيم من عقل إسماعيل .

إن مثقفاً مثله كان عليه أن يحسب عواقب تحطيم القنديل قبل أن

يحطمه ، ولأنه لم يحسن قراءة العواقب ، فقد أنزلت به الجموع العقاب . وهكذا تصدعت علاقته بالجموع ، وهو الذى كان قبل سفره شديد الالتصاق بالحى وأبنائه .

لقد أدرك إسماعيل أنه فقد هيبته واحترامه بين الجموع ، بل إن الناس يتهمونه بالجنون ، ومن هنا كان تفكيره فى العودة إلى إنجلترا ؛ ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ، ولكنه " يشعر بجسمه وقد شد إلى

هذه الدار التى لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فكاكاً " [٢٥] .

إسماعيل بين نارين : لا يطيق رؤية الجهل والعمى والتخلف فيمن حوله ، لكنه عاجز تماما عن تغيير أولئك الذين أدمنوا الكسل . وهو يكره الميدان بمن فيه ، لكنه لا يطيق فراقه . وهو يحب الإنجليز لأنهم يفهمون الحياة ، ولكن حب وطنه أشد . يريد أن يغادر الوطن ، ولكن جسمه مسكون بالوطن ، وروحه أسيرة الوطن . هكذا تتمزق ذاته بين أبناء وطنه كما تمزقت من قبل لدى لقائه مع مارى ! إنه بطل إشكالى بكل المقاييس .

وضاقت الدنيا فى وجهه حين أخفق علمه الذى عاد به من إنجلترا فى مداواة عينى فاطمة ، وحين " استيقظت فاطمة على صياح وهى تفتح عينيها ولا ترى .. لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به " [٢٦] . وعند هذه المرحلة قرر الهروب من الدار ، وهو هروب إن دل على شىء فإنما يدل على شعوره بالحرج ، وعجزه عن فهم مشكلة فاطمة . هنا لا يفوتنا أن نلاحظ أن مارى هزت إسماعيل بعنف فى إنجلترا وشككته فى ثوابت حضارته ، والآن تشككه فاطمة فى حضارة الغرب ، وفى طب الغرب . وما استعصاء عينيها على الاستجابة لطب الغرب ، سوى هزيمة لا للطبيب إسماعيل فحسب ، بل لوجه من وجوه الحضارة الغربية ، أنه تمرد شرقى على حضارة مادية بلا قلب.

---

(٢٥) قنديل أم هاشم ، ص ٤٧ : ٤٨ .
(٢٦) السابق ، ص ٤٩ .

بل إن سلوك إسماعيل بعد ضياع بصر فاطمة ، دلَّ على أنه فقد الثقة فيما تعلمه من دروس الطب فى جامعات إنجلترا ، يؤكد ذلك أنه " باع كتبه وبعض الأدوات التى أحضرها معه من أوروبا " [٢٧] .

ولم تزل حياته تشهد تحولات عديدة ، وها هو ذا يستقبل شهر رمضان ، ولكن لم يخطر له أن يصوم [٢٨] ، وها هو ذا يحدث نفسه : " لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوروبا بجعبة كبيرة محشوة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هى أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثَقُلَتْ فى يده فجأة " [٢٩] .

وجاءت ليلة القدر ، فإذا روح جديدة تسرى فى أوصال إسماعيل ، ففى قلبه لذكراها حنان غريب . رُبِّىَ على إجلالها ، والإيمان بفضائلها ومنزلتها بين الليالى . لا يشعر فى ليلة أخرى ـ حتى ولا ليالى العيد ـ بمثل ما يشعر به فيها من خشوع وقنوت لله . هى فى ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالى ... " [٣٠]. هكذا يشرق نور الإيمان فى قلبه ؛ ليبدأ فى التحرر من وهم الاعتقاد بأن الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير ، وهو الوهم الذى زرعته مارى فى نفسه .

وبينما هو سابح فى أفكاره ، غائب عمن حوله ، انتفض من رأسه إلى أخمص قدميه . لقد رأى سيدى العتريس يغمر بنوره الميدان

---

(٢٧) قنديل أم هاشم ، ص ٤٩ .
(٢٨) السابق ، ص ٥٢ .
(٢٩) نفسه ، ص ٥٢ .
(٣٠) نفسه ، ص ٥٣ .

، وهنا أخذ يحادث نفسه : " أين أنت أيها النور الذى غبت عنى دهراً . ؟ مرحباً بك . لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين على قلبى وعينى وفهمت الآن ما كان خافياً علىَّ : لا علم بلا إيمان . إنها " يقصد فاطمة " لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتْكِ أنْتِ وكرمكِ ومنكِ . ببركتْكِ أنْتِ يا أم هاشم " [٣١] .

ومنذ تلك اللحظة التى أيقن فيها أنه لا علم بلا إيمان ، تأخذ أزمته طريقها إلى الانفراج التدريجى ، وتبدأ المصالحة بين روحانية الشرق الكامنة فى أعماقه ، و مادية الغرب كما تمثلها دروس الطب التى تعلمها فى إنجلترا ، وعلى ذلك نجد :

أولاً : أن إسماعيل الذى قال من قبل : " أنا لا اعرف أم هاشم ولا أم عفريت " والذى ألقى قارورة الزيت من النافذة ، ثم حطم قنديل ، عاد ليدخل المقام الزينبى مطأطىء الرأس ، وكأنما يعتذر لا لصاحبة المقام فحسب ، بل لأبناء الحى الذين هالهم أن يقدم إسماعيل على ما أقدم عليه ، وفى الوقت نفسه نراه يسأل الشيخ دردیرى عن صحته وأخباره ، ويميل نحوه قائلاً: "هذه ليلة مباركة يا شيخ دردیرى أعطنى شيئاً من زيت القنديل "[٣٢].

ثانيا : أن إسماعيل الذى سخر من أمه حين رآها تقطر من زيت القنديل فى عينى فاطمة ، والذى أبى إلا أن يعالج فاطمة بعلم أوروبا وحده ،

---

(٣١) قنديل أم هاشم ، ص ٥٢: ٥٤ .
(٣٢) قنديل أم هاشم ، ص ٥٥ .

والذى أذهب بعلاجه بصرها أو البقية التى كانت متبقية منه ، أدرك الآن أن طب أوروبا لا يغنى ـ مع فاطمة ـ عن زيت القنديـل ، وها هو ذا يقول لها :

" تعالى يا فاطمة . لا تيأسى من الشفاء . لقد جئتك ببركة أم هاشم، ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك فإذا هو جديد " [٣٣] . وإذن فمادية الغرب لا تنفع وحدها فى جلاء عيون أهل الشرق ، وإنما تنفع متى مازجتها روحانية الشرق . تلك هى الحقيقة التى خلصت إليها الشخصية المحورية بعد طول صراع ، وهى حقيقة توفيقية تشى بأن اللقاء بين الحضارتين أمر ممكن وليس مستحيلا ، مما ينقض الاعتقاد بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .

ثالثا : أن إسماعيل الذى عاد من إنجلترا واثقاً من أنه لن يتزوج فاطمة وأنه " سيخون وعده ، وينكث عهده " [٣٤] مع أبيه ، رضى ـ أخيراً ـ بفاطمة زوجاً له ، وأنسلها خمسة بنين وست بنات " [٣٥] . مما يعكس جانبا مهما من التحولات التى طرأت على شخصيته . وكما استعادت فاطمة بصرها استعاد إسماعيل وعيه بإحدى قيم حضارته ؛ أعنى قيمة الوفاء بالعهد .

---

(٣٣) السابق ، ص ٥٦ .
(٣٤) نفسه ، ص ٣٨ .
(٣٥) نفسه ، ص ٥٧ .

رابعا : أن إسماعيل الذى عاد من إنجلترا متمنياً أن يعرض عن خدمة الحكومة ، وأن يفتح عيادة فى أرقى أحياء القاهرة [٣٦] ، افتتح لنفسه عيادة فى حى شعبى " البغالة " بجوار التلال ، وفى منزل يصلح لكل شىء إلا لاستقبال مرضى العيون [٣٧]. ووجود عيادته فى الحى الشعبى يؤكد استمرار انصهاره فى الجموع ، وعدم تأففه من أبناء طبقته . كما يؤكد تحرره من مقولات مارى عن العواطف الشرقية المرذولة ، غير المنتجة .

خامسا : أن إسماعيل الذى صلى للعلم ومنطقه فى إنجلترا [٣٨] ، وكفر بالعلم عندما عجز عن مداواة عينى فاطمة ، عاد من جديد إلى عمله وطبه يسنده الإيمان [٣٩] .

ولا يزال يحيى حقى يصحب إسماعيل ويضئ معالم شخصيته عبر احتكاكها بالشخوص والمواقف ، ولا يدعه حتى يموت فى نهاية الرواية .

---

(٣٦) قنديل أم هاشم ، ص ٣٥ .
(٣٧) السابق ، ص ٥٦ .
(٣٨) نفسه ، ص ٣٤ .
(٣٩) نفسه ، ص ٥٦ .